

آني إرنو



الشاب

ترجمة: مبارك مرابط

جائزة نوبل للآداب 2022

منشورات الجمل

آني إرنو

الشاب

ترجمة: مبارك مرابط

منشورات الجمل

آني إرنو: **الشاب**

آني إرنو، روائية فرنسية معاصرة. أمضت شبابها في «إيفيتو» في منطقة النورماندي. حائزة «الأغريغاسيون» في الآداب الحديثة، مارست التدريس في «أنيسي» و«بونتواز». تعيش اليوم في «سيرجي» بمنطقة «لو فال دواز». فازت روايتها «الساحة» بجائزة «رونودو» (١٩٨٤). حازت جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٢٢. صدر لها عن منشورات الجمل: **الاحتلال**، ٢٠١١؛ **انظر إلى الأضواء يا حبيبي**، ٢٠١٧؛ **شغف بسيط**، ٢٠١٩؛ **الحدث**، ٢٠١٩؛ **امرأة**، ٢٠١٩؛ **مذكرات فتاة**، ٢٠٢١.

آني إرنو: **الشاب**، الطبعة الأولى
ترجمة: مبارك مرابط

ص.ب: ٧٢١١١ – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

Annie Ernaux: *Le Jeune Homme*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تقديم

«آني إرنو».. كيمياء الذات والحكاية والكتابة

في هذا النص السردي الذي بين يديك، تحكي الكاتبة الفرنسية «آني إرنو» (١٩٤٠-) مغامرتها مع شاب يصغرها بحوالي ٣٠ عاماً. مغامرة دامت حوالي أربع سنوات من زمننا الخطي، تحكيها في نص قصير جداً (لا يزيد طوله عن ٣٤٠٠ كلمة في الترجمة العربية، أكثر بقليل في النسخة الأصلية)، وطويل جداً في الآن ذاته (لأنه يغوص عميقاً في الذاكرة ويسائل الزمن الفردي والزمن المجتمعي).

تتعرف الساردة/ الشخصية الرئيسية/ الكاتبة على «أ»، طالب الأدب الذي كان يكاتبها ويطلب لقاءها، فتنخرط معه في مغامرة جنسية. تسترجع من خلالها الفتاة التي كانتها وهي طالبة. كان يأخذها إلى

المقاهي والحانات التي يتردد إليها الشباب ويُعرِّفُها على رفاقه، بينما تستصحبه إلى الأماكن التي كانت ترتادها وهي طالبة. في هذه المغامرة سينتزعها من جيلها، دون أن تفلح في الدخول إلى جيله. وسترصد عبرها نظرة المجتمع إلى هذا النوع من العلاقات التي لا يرى فيها مغامرة جنسية أو عاطفية أو حتى نزوة، بل يعتبرها «نوعاً من زنا المحارم»، كما تقول.

لم تكن أحداث مغامرتها مع «أ»، التي بثّتها في ثنايا النص بسلاسة ماكرة، مهمة في حد ذاتها، بل ما أكسبها أهميتها هو تلك القدرة التي لدى «آني إرنو» على أخذ المسافة الكافية منها، وفي الآن ذاته الغوص عميقاً في تلك التفاصيل التي لا نعيرها اهتماماً، بل ولا نلمحها أصلاً. تماماً كما يفعل العارف بخبايا التشكيل أمام لوحة معروضة أمامه. ينظر إليها كوحدة كاملة، وفي الآن نفسه يدقق في تفاصيلها وضربات الريشة وتدرّجات الألوان ورقصات الظلال. أي كل تلك الأشياء الدقيقة التي

تفلت من العين غير المتمرّسة، أو لنقل العين «العادية».

* * *

لم يكن غرض «آني إرنو» سرد مغامرتها مع «أ» فقط، وهي قد تبدو في نهاية المطاف عادية، وربما مبتذلة. بل كانت هذه الحكاية بكل تفاصيلها ذريعة أو وسيلة لاختبار ذلك الصراع الدائم بين الذات والحكاية والكتابة. فالذات والأشياء لا تتحقق إلا في الحكاية، والحكاية لا تتحقق إلا في صراعها/ التحامها/ وصالها مع الكتابة. والحياة تظل عادية، فقيرة، ومجرد تعاقبٍ رتيب وزائل للسنوات والأيام والساعات والدقائق والثواني، مهما كانت غنية بالأحداث والتحولات، ولا تكتسب قيمتها وكينونتها «الحقيقية»، سوى بعد ارتقائها إلى مرتبة الكتابة.

في «الشاب»، تؤكد «آني إرنو» على هذه «المعادلة الفزيائية» بالنسبة إليها، قبل البدء في سرد حكايتها: «إن لم أكتبها، لا تبلغ الأشياءُ مداها،

وتظل مجرّد أشياء عشتها». فحكاية «آني» مع «أ» لا تبلغ مداها، بل لا يتحقق وجودها أصلاً ما لم تكتبها الكاتبة «إرنو».

إن علاقة الكاتبة والأستاذة «آني إرنو» مع طالب الأدب «أ»، التي دامت ما بين ١٩٩٤ و١٩٩٧، لم تكن، بكل متعها الجنسية وتقلّباتها العاطفية وحساباتها الاقتصادية والاجتماعية، في نهاية المطاف سوى رحم «واقعية» تتشكل داخلَها الحكايةُ. تتمخض في تجاويفها الكتابةُ.

ولعل الحديث عن الرحم هنا يجعلني أشير إلى أن نص «إرنو» هذا، ينبهنا إلى تلك العلاقة الملتبسة بين الإجهاض والكتابة. فالإجهاض وأد وولادة في الآن ذاته، كذلك الكتابة قتل وإحياء. فـ«الشاب» ينتهي بوأد للعلاقة بين «آني» و«أ» وولادة نص أول يحمل عنوان «الحدث» تحكي فيه «إرنو» تجربتها المريرة مع الإجهاض في بدايةَ الستينيات، لمّا كانت هذه الممارسة محرمة (يا للمفارقة: ولادة نص يتحدث عن الوأد)؛ ثم ميلاد نص ثانٍ هو حكاية

الأستاذة والكاتبة «آني» مع طالب الأدب «أ» والتي ستری النور، بعد مخاض طويل في رحم الكتابة هذه المرة، على هيئة نص يحمل عنوان «الشاب».

* * *

تقول «آني إرنو» في حوار مع *Magazine Littéraire*، المجلة الأدبية الفرنسية الرفيعة، إن «الكتابة لا تتماهى مع الخيال.. بالنسبة إليَّ الكتابة هي الاستعادة». وهذا النمط من الكتابة يتطلب ثلاثة عناصر يصعب اجتماعها: الكثير من الصدق مع الذات؛ والصرامة في مواجهة الرقابة الذاتية والضوابط المجتمعية التي تبقى ضاغطة حتى في مجتمعات متحررة مثل المجتمع الفرنسي؛ وقدرة عالية على أخذ المسافة من الأحداث حتى تبدو أكثر «وضوحاً» أو، بالأحرى، أقل التباساً. وتكمن فرادة «آني إرنو» في نجاحها في التوليف بين هذه العناصر الثلاثة، وفي امتلاكها لِتلك القدرة النادرة على تحويل «الواقعي» المبتذل، الزائل، إلى كتابة

مشعّة مثل قطعة الألماس، لها عدة واجهات/ قراءات، وكل واحدة تتلألأ أكثر من الأخرى: هكذا يمكن أن نصادف في مجرى نصها هذا (ونصوصها عموماً) الكتابة المحايدة التي تعتمد لغة زجاجية صارمة؛ والكتابة باليد «الشاعرية» الساعية للقبض على الزمن المنفلت (هل أقول المفقود؟)؛ والكتابة بالعين «اليقظة» التي تلتقط التحولات النفسية والاجتماعية للفرد والمجتمع من ثنايا أحداث الحياة اليومية؛ والكتابة بالسكين التي تكشف ببراعة الجراح ما يمعن الفرد في إخفائه، ويجاهد المجتمع في كظمه.

* * *

لعل الطابع «الألماسي» لهذ النص (ولنصوص «آني إرنو» عموماً) يجعل ترجمته عصية نوعاً ما. فهو مخادع، يبدو ظاهرياً طيّعاً سهل الانقياد، ولكنه يتطلب جهداً خاصاً للقبض على روحه، وعلى واجهاته المتعددة، وعلى الومضات التي تشعّ منها.

ولا يسعني هنا سوى أن أشكر صديقيَّ الكاتب محمد مفيد والشاعر عبد العالي الدمياني، اللذين يقرآن بنهم ويكتبان باقتصاد، على مراجعة ترجمة هذا النص وترميم ما شابه من ارتباك.

مبارك مرابط

آني إرنو

الشاب

إن لم أكتبها، لا تبلغ الأشياءُ مداها،
وتظل مجرّد أشياءَ عشتها.

قبل خمس سنوات، أمضيت ليلة خرقاء مع طالب كان يكاتبني منذ عام، ويرغب في لقائي.

غالباً ما مارست الجنس لأرغم نفسي على الكتابة. كنت أتمنى أن يجعلني التعبُ والتيهُ الذي يلي الوصال الجنسي مستغنيةً عن أي شيء من الحياة. كنت أتطلع إلى أن تجعلني نهاية اللهفة الأكثر عنفاً - لهفة بلوغ الرعشة - متيقنةً من أن نشوة الكتابة لا تفوقها أي نشوة أخرى. لعل هذه الرغبةَ في قدح شرارة تأليف كتاب - كنتُ مترددةً في مباشرته نظراً لجسامته - هي التي دفعتني إلى مرافقة «أ» إلى بيتي لاحتساء كأس، بعد تناول العشاء في

المطعم حيث ظل، من فرط الخجل، أخرس تقريباً. كان يصغرني بحوالي ثلاثين عاماً.

صرنا نلتقي، بعدها، في نهايات الأسابيع. وكنا نشتاق كثيراً إلى بعضنا في الأيام التي تفصل بينها. أخذ يهاتفني كل يوم من هاتف عمومي حتى لا يثير شكوك الفتاة التي يعيش معها. فلم يتخيّلا قط - وقد علِقَا في شرك روتين حياة مشتركة مبكرة، وانشغلا بهموم الامتحانات - أن ممارسةَ الجنس قد تكون شيئاً آخر غير إشباع رغبة، بطريقة أقل أو أكثر بطء.. قد تكون نوعاً من الإبداع المتواصل. كان الحماس الذي يبديه أمام هذا الشيء الجديد عليه يزيد من تعلّقي به أكثر فأكثر. شيئاً فشيئاً، صارت المغامرة قصة حقيقية كانت تحدونا الرغبة في عيشها إلى نهايتها، دون أن نعلم حقاً ماذا يعني ذلك.

بعد انفصالِه عن صديقته - وهو ما كان مبعث ارتياحي ورضاي - ومغادرتِها الشقةَ، دأبتُ على زيارته من الجمعة مساء إلى الاثنين صباحاً. كان يقطن في «روان»[1]. . المدينة حيث كنت طالبة في الستينيات، والتي كنت فقط أعبرُها، طيلة سنين، لزيارة قبرَيْ والديَّ في «إ». فور وصولي - وبعد التخلص في المطبخ، من المشتريات التي حملتُها معي - نمارس الجنس. تكون أسطوانة ليزر قد وُضِعت مسبقاً في جهاز ستيريو، ويتم تشغيلها فور دخولنا إلى الغرفة. غالباً ما تكون مجموعة الـ «دورز». في لحظة ما تغيب عن مسامعي الموسيقى.

تصلني مجدداً أوتار أغنية «She Lives in The Love Street»، وصوت «جيم موريسون»[2]. نظل

---

(١) «روان» (Rouen)، العاصمة الإدارية لمنطقة «نورماندي» تقع على بعد حوالي ١٤٠ كلم إلى الغرب من باريس

(٢) «جيم موريسون» (Jim Morrison) (١٩٤٣-١٩٧١) أشهر وجوه مجموعة «الدورز» وأحد مؤسسيها. ويمكن ترجمة عنوان الأغنية بـ: «تعيش في شارع الحب».

مُستلقيَيْن فوق المرتبة الموضوعة على الأرض. تكون حركة المرور كثيفة في تلك الساعة. تلقي أضواء السيارات بأنوارها على جدران الغرفة من خلال النوافذ العالية التي لا ستائر لها. يداهمني شعور بأنني لم أغادر قط السرير، نفس السرير منذ الثامنة عشرة، ولكن في أماكن مختلفة ومع رجال مختلفين، ومع ذلك لا يمكن تمييز بعضهم عن بعض.

كانت شقتُه تُطِلُّ على «قصر الرب»[1]، المهجور منذ عام، والذي تجري فيه الأشغال لتحويله إلى مقر المحافظة. في المساء، تضاء نوافذ البناية، وغالباً ما تظل مضاءة طيلة الليل. كان الفناء المربعُ الكبيرُ في مقدمتها، ساحةً من الظلال الخفيفة والفارغةَ خلف الأبواب الحديدية المغلقة. كنت أرى الأسقف السوداء، وقُبَّة كنيسة تطفو هناك في العمق. لا أثر

(١) «قصر الرب» (Hôtel-Dieu) مستشفى سابق بـ«روان» تحول منذ سنوات إلى مقر لمحافظة «سين ماريتيم» وجهة «نورماندي».

لأي أحد باستثناء الحراس. إلى هذا المكان، هذا المستشفى، تم نقلي، وأنا طالبة، في إحدى ليالي كانون الثاني بسبب نزيف ناجم عن إجهاض سرّي. نسيتُ في أي جناح كانت تقع الغرفة حيث أمضيتُ ستة أيام. كان في ثنايا هذه الصدفة المذهلة، الفريدة ربما، أمارةٌ على أن هذا لقاءٌ غير عاديٍّ وقصةٌ يتحتم عليَّ عيشُ تفاصيلها.

في الآحاد خفيفة المطر، بعد الظهر، نظل تحت الغطاء، حتى يأخذنا النعاس. من الشارع الصامت كانت تصلنا أصوات العابرين القلائل، غالباً ما يكونون من المهاجرين القاطنين بمركز للاستقبال في الجوار. في تلك اللحظة يغمرني إحساس بأنني طفلة في «إ»[1]، أقرأ، وأنا بجانب والدتي التي غلبها النوم من فرط التعب وهي على السرير بكامل

(١) «إ» الحرف الأول لاسم مدينة «إيفيتو» حيث ترعرعت «آني إرنو»، وهي لا تبعد كثيراً عن «روان» في غرب فرنسا.

ملابسها، يوم الأحد بعد تناول الغداء وإغلاق محل البقالة. كنتُ أفقد الإحساس بالسِّن، وأتطوح من زمن إلى آخر، وأنا في نصف وعيي.

استعدتُ في بيته تلك الحياة المتقشّفة والاستقرار الهشّ الذي عشت في خضمه في بداية حياتي مع زوجي، ونحن طالبان. على الصفائح الكهربائية، التي تعطل ضابط الحرارة فيها، لا يمكن لنا سوى طهو شرائح اللحم - التي قد تلتصق بالمقلاة في أي لحظة - والمعجنات أو الأرز في إناء طافح. كانت الثلاجة التي يصعب التحكم في درجة برودتها تجمد الخس في درج الخضراوات. وكان يجب ارتداء ثلاث كنزات لتحمّل البرودة الرطبة للغرف - ذات الأسقف العالية والنوافذ غير المُحكَمَة - التي يستحيل تدفئتها بسخانات كهربائية في حالة متردية.

كان يأخذني إلى الـ«Bureau» والـ«Big Ben»، وهما مقهيان يرتادهما الشبابُ كثيراً. ويدعوني إلى مطعم «Jumbo». إذاعته المفضلة هي «Europe 2». ويشاهد كل مساء برنامج «Nulle Part Ailleurs». في الشارع، كان الناس الذين يتبادل معهم التحية من الشباب، وفي الغالب طلبة. لمّا يتوقف للحديث معهم أتنحّى جانباً. كانوا يلقون عليَّ نظرة خاطفة. بعدها، يحكي لي عن المسار الجامعي لمن صادفناه للتو، مفصلاً في نجاحاته أو إخفاقاته. في بعض الأحيان، يشير، من بعيد وخلسة - يطلب مني ألا ألتفت - إلى أستاذ من أساتذة كلّيته. كان ينتزعني من جيلي دون أن أفلح في الولوج إلى جيله.

كانت غيرته الشديدة - اتّهمني بأنني استقبلتُ رجلاً في بيتي فقط لأن مقعد المرحاض كان مرفوعاً - تُبعدُ عني أي ميل للشك في مدى شغفه بي، وترفع إلى مرتبة السخف ذلك اللوم الذي كنتُ أتصور أن

أصدقاءه يلقونه عليه: «كيف يمكنك الخروج مع امرأة توغلت في سن اليأس؟».

كان يغمرني باهتمام لم أحظ به قط، وأنا في الرابعة والخمسين، من طرف أي عشيق سابق.

في ظل ما يعيشه من هشاشة وعوز الطلبة الفقراء - والداه الغارقان في الديون يقطنان في الضاحية القريبة لباريس ويعيشان براتب سكرتيرة وعقد عمل تضامني - لم يكن يشتري سوى السلع الرخيصة أو تلك التي عليها الخصم، من مثلثات جبنة «البقرة الضاحكة» وصولاً إلى الأصناف المتواضعة من جبنة «الكامومبير». كان يذهب إلى غاية متجر «MONOPRIX» لشراء الخبز الفرنسي لأن ثمنه أقل بخمسين سنتيماً من المخبز الذي في الجوار. كانت تبدر منه تلقائياً تلك التصرفات وردود الأفعال التي يفرضها العوز الدائم والموروث. تلك الشطارة

التي تسمح له بتدبير الأمور يوماً بيوم: في السوق الكبير، كان يأخذ حفنة كاملة من الجبنة المعروضة في الصحن الذي تقدّمه العاملة للتذوق.. في باريس، وللتبول دون دفع أي شيء، كان يدخل إلى مقهى ما بخطى ثابتة، ويرصد مكان المراحيض، ثم بعد ذلك يخرج بلامبالاة تلامس الوقاحة.. يعرف الوقت (لم تكن لديه ساعة) من عداد موقف السيارات.. إلخ.

كان يلعب اليناصيب الرياضية كل أسبوع، منتظراً كل شيء من الصدفة، كما هو حال كل غارق في العوز: «سوف أفوز يوماً ما.. حتماً». في صبيحة أيام الأحاد يتابع برنامج «TELEFOOT» مع «تييري رولاند»[١]. كانت اللحظةُ التي يسجل فيها اللاعب هدفاً.. اللحظةُ التي تهتز فيها جماهير ملعب «حديقة الأمراء» للاحتفال، تجسد بالنسبة إليه السعادة الخالصة. هذه الصورة تغمره بالقشعريرة.

---

(١) «تييري رولاند» (Thierry Roland) (١٩٣٧-٢٠١٢) معلّق رياضي فرنسي شهير.

كان يقول «كفى» أو «حسناً» بدل «شكراً» لمّا أخدمه على المائدة. كان يسمّيني «الفتاة» أو «الأم». يتهكّم على صراخي العالي لمّا أكتشف أنه دخّن الحشيش. لم يسبق له أن أدلى بصوته. لم يكن حتى مسجلاً في القوائم الانتخابية. لا يعتقد بإمكانية تغيير أي شيء في المجتمع. كان يكفيه التسلل إلى دهاليزه، وتجنب العمل، واستغلال الحقوق التي يمنحها لأفراده. إنه شاب من شباب اليوم، شاب مقتنع تماماً بأن «لكل فرد همومه». بالنسبة إليه، لم يكن للعمل معنى آخر غير أنه إكراه ثقيل لا يرغب في الخضوع له، ما دامت هناك سبل أخرى للعيش. كان التوفر على مهنةٍ شرطاً أساسياً لامتلاك حرّيتي، واستمرارها في ظل عدم اليقين الذي يخيّم على نجاح كتبي، حتى وإن كنت أقر أن الحياة الطلابية تبدو لي أكثر ثراء ومتعة.

قبل ثلاثين سنة، كنت سأبتعد عنه. لم أكن آنذاك أرغب في استعادة سِمَات أصولي الشعبية في شاب ما.. استعادة كل ما أعتبره «تخلفاً» وأدرك أنه في ثنايا ذاتي. يحدث أن يمسح فمه بقطعة من الخبز أو يضع إصبعه على كأسه حتى لا أسكب له المزيد من النبيذ، ولكن لم أكن أبالي بهذا. ولعل انتباهي إلى هذه التصرفات - وربما، بخبث، لامبالاتي بها - كان دليلاً على أنني لم أعد أنتمي إلى العالم ذاته الذي ينتسب إليه. مع زوجي، في الماضي، كنت أحس أنني ابنة الشعب.. معه هو صرتُ برجوازية.

إنه حاملُ ذاكرةِ عالميَ السابق. تحريك السكّر في فنجان القهوة حتى يذوب بسرعة.. تقطيع السباغيتي.. تقسيم التفاحة إلى قطع صغيرة والتقاطها بطرف السكين.. كلها تصرفات منسية أستعيدها فيه، بشكل مربك. صرتُ من جديد في العاشرة.. في الخامسة عشرة، أجلس حول المائدة

مع العائلة، والأقارب الذين كان يشبههم ببشرته البيضاء وحمرة الوجنتين التي تميز أهل نورماندي. كان تجسيداً للماضي.

برفقته، كنت أجوب كل مراحل الحياة.. حياتي.

كنت آخذه إلى الأماكن التي اعتدتُ ارتيادَها خلال سنوات دراستي الجامعية.. مقهى «Le Metropole» و«Le Donjon» قرب المحطة.. كليةُ الآداب بشارع «بوفوازين»، المهجورةُ منذ نقلها إلى الحي الجامعي «مون-سانت- إينيون»، وقد ظل مظهرها الخارجي كما كان منذ الستينيات، مع سبورة الإعلانات المحمية بسياج، وحدها ساعة الواجهة كانت متوقفة.. الحيُّ الجامعي الصغيرُ بشارع «هيربوفيل»، وبجانبه المطعم الجامعي حيث بدا لي - بعد أن تجاوزنا المدخل وصعدنا الدرجات

المعدودة لنجد أنفسنا في البهو الرئيسي الذي لم يتغير، بالسخان في الوسط والأبواب في مكانها - أنني، ولدقائق طويلة، أتحرك وسط زمن الأحلام، الذي لا اسم له.

كانت ممارسة الجنس على مرتبة فوق الأرض مباشرة في غرفة شديدة البرودة، والعشاء البسيط على طرف المائدة، والمشاكسة الشبابية التي رضخت لها بسهولة، تمنحني إحساساً بتكرار أحداث سابقة. على عكس سنواتي الثماني عشر والخمس والعشرين لمّا كنت مندمجة تماماً في كل ما يحدث لي بـ«روان»، بلا ماض ولا مستقبل، كان يخالجُني مع «أ» شعورٌ بأنني أعيد أداء مشاهد وحركات سبق لي عيشها.. بأنني أعيد أداء مسرحية شبابي.. أو مسرحية كتابةِ/عيشِ روايةٍ أنسج فصولها بعناية كبيرة.. فصل عن نهاية أسبوع في الفندق الكبير بـ«كابورغ».. فصل عن رحلة إلى «نابولي». بل إن بعضاً من تلك الفصول سبق أن كتبتُها، مثل الرحلة

إلى البندقية التي زرتُها لأول مرة رفقة رجل في ١٩٦٣، وعدت إليها للقاء شاب إيطالي في ١٩٩٠.

حتى مرافقته إلى عرض لـ«المغنية الصلعاء» بمسرح «لاهوشيت»[١] كانت تكراراً لطقس مارستُه مع كل واحد من ابْنَيَّ، عند بلوغهما سن المراهقة.

يمكن النظرُ إلى علاقتنا من زاوية المصلحة. كان يمنحني المتعة، ويجعلني أعيش من جديد ما لم أتصور قط أنني سأستعيده. بالمقابل بدا لي منحُه أسفاراً، وإعفاؤه من عناء البحث عن عمل قد لا يجعله رهن إشارتي، اتفاقاً عادلاً، صفقةً جيدةً، خاصة أنني من يحدد فيها القواعدَ. كنت في موقع المهيمنة، وأستخدم أسلحة الهيمنة وأنا أدرك هشاشتها في العلاقة العاطفية.

---

(١) «لاهوشيت» (La Huchette) مسرح باريسي اشتهر بأنه يعرض مسرحية «المغنية الصلعاء» لـ«أوجين يونيسكو» منذ أواسط الخمسينيات من القرن الماضي.

كنت أسمح لنفسي بردود عنيفة لا أعرف إن كانت ناجمة عن تبعيته الاقتصادية أم كان دافعَها سنه الصغيرة. «حل عني!». . هذه العبارة السوقية التي كانت تثير استياءه، لم يسبق لي أن قلتها لأي شخص قبله.

كنت أحب أن أرى في نفسي تلك التي يمكن أن تغير حياته.

في أكثر من مجال - في الأدب، في المسرح، وفي السلوك البرجوازي - كنت مرشدتَه، ولكن ما جعلني أعيشه كان أيضاً تجربة جديدة. والسبب الرئيسي الذي جعلني مصرّة على مواصلة عيش هذه القصة، يكمن في كون أحداثها سبق لها، بشكل من الأشكال، أن جرت في الماضي، وكنتُ فيها الشخصيةَ الخيالية.

لم يكن خافياً عني أن كل هذا يكتنفه، بالنسبة لهذا الشاب، الذي كان في بدايات الأشياء، نوعٌ من القسوة. يا ما رددتُ على مشاريعه المستقبلية معي بـ: «الحاضر يكفي»، دون الإفصاح بأن هذا الحاضر ليس بالنسبة إليَّ سوى ماضٍ مستنسخٍ. والازدواجية، التي اعتاد اتهامي بها في فورات غيرته، لا تكمن، على عكس ما يتصور، في اشتهائي لرجال آخرين غيره، ولا حتى في تذكّر عشاقي، كما يعتقد. بل هي مُلازِمَة لوجوده في حياتي التي حوّلها إلى طِرْس غريب لا يتوقف محوُه وإعادةُ نسخه.

في بيتي، يرتدي روبَ الحمَّام ذا القبعة الذي لفّ أجسام رجال آخرين. حين يتدثر به لم أكن أرى أياً منهم. أمام هذا الثوب الإسفنجي الرمادي الفاتح كنت أشعر فقط بعذوبة امتداد زمني، وعذوبة إدراك طبيعة رغبتي.

يحدث أن نأتي على ذكر الزمن الذي سيصير فيه زوجاً، وأباً. هذا المستقبل - الذي كنا نستحضرُه، ونحن نحدق أحدنا في عينَي الآخر، متعانقين، على حافة البكاء - لم يكن حزيناً أبداً. بل كان يجعل الحاضرَ أكثر كثافةً وتأثيراً حتى أننا نعيشه كأننا نستعيد ماضياً. كنا نتوحّد خيالياً في محراب خسارتنا المتبادلة، بمتعة بالغة.

لم يعد لجسدي عمر محدد. وتَطَلَّبَ الأمرُ نظراتِ الاستهجان من طرف زبائن كانوا بجوارنا، في أحد المطاعم، لأستوعبه.. نظرات جعلتني - بعيداً عن أي شعور بالعار - أصمّم أكثر على عدم إخفاء علاقتي برجل «كان يمكن أن يكون ابني»، ما دام بإمكان أي كائن آخر في الخمسين الظهور مع فتاة ليست بكل وضوح ابنته، دون أن يثير الأمرُ أي استهجان.

والحال أنني كنت أدرك، وأنا أنظر إلى هذين

الزوجين الناضجين بجنبنا، أن الحافز وراء ارتباطي بشاب في الخامسة والعشرين هو عدم رغبتي في رؤية قسماتِ رجل في سني باستمرار، قسماتٍ تعكس تقدمي في السن. أمام محيا «أ» تكون ملامحي أيضاً شابة. والرجال يدركون ذلك منذ الأزل، ولا أرى سبباً وجيهاً يجعلني أحرم نفسي من هذا.

أحياناً، ألمحُ لدى بعض النساء من سني الرغبةَ في إثارة انتباهه، وذلك بناءً، حسب رأيي، على منطق بسيط: إن كانت تروق له، فلأنه يفضل النساء الناضجات، إذن لِمَ لا أنا؟ فهنّ يدركن جيداً موقعهن في السوق الجنسي، وبما أن واحدة منهن استطاعت خرق هذا الوضع، فذلك يمنحهن الأمل ويسلحهن بالجرأة. ورغم طبيعته المزعجة، فإن هذا السعي - خلسة في الغالب - لإثارة رغبة رفيقي لم يكن يضايقني مثلما تضايقني تلك الثقة التي تبديها الفتيات الشابات وهنّ يتودّدن إليه جِهاراً وأمامي،

كأن وجودَ امرأة أكبر منه إلى جانبه عقبةٌ يستهان بها، بل لا وجود لها أصلاً. ولكن، إن فكرنا في الأمر ملياً، تظل المرأة الناضجة أخطر من الفتاة الشابة، والبرهان: ترك واحدة في العشرين من أجلي أنا.

كنا نذهب لمشاهدة الأفلام التي تتناول علاقة شاب بامرأة ناضجة. نخرج منها ونحن مصابان بخيبة الأمل، ساخطان على السيناريو الذي لم نعثر فيه على ما نعيشه.. السيناريو حيث تكون المرأة متوسلةً، ويكون مصيرها في النهاية الهجران والانهيار. كذلك، لم أكن «لِيَا» في «شيري»، رواية «كوليت»[1] التي أعدتُ قراءتها. ما كنت أشعر به في هذه العلاقة لا تسعفُ العبارةُ في وصفه، علاقة

(١) «كوليت» (Colette) (١٨٧٣-١٩٥٤) كاتبة وصحافية وممثلة فرنسية، و«شيري» من أشهر رواياتها صدرت عام ١٩٢٠ وتدور حول معاناة «ليا» تلك الخمسينية التي ارتبطت بـ«فريد» الذي يصغرها بكثير من السنوات.

يتداخل فيها الجنس والزمن والذاكرة. كنت أنظر، بشكل عابر، إلى «أ» على أنه ذلك الشاب البازوليني في «تيوريما»[1]. . نوعٌ من الملائكة.

كما هو الحال في كل الأوضاع التي تخرق معايير المجتمع، كنا نرصد فوراً من هم مثلنا. نتبادل فيما بيننا نظرات التواطؤ. فنحن في حاجة إلى من يشبهنا. كان من المستحيل، ونحن في الخارج، أن أنسى أننا نعيش هذه القصة تحت أنظار المجتمع، وهو ما كنت أعتبره تحدياً أسعى من خلاله إلى تغيير الأعراف السائدة.

على الشاطئ، وأنا ممددة بجانبه، كنت أدرك أن جيراننا يراقبوننا خلسة، أنا بالخصوص. . يفحصون

---

(١) «تيوريما» (TEOREMA) فيلم أخرجه المخرج الإيطالي «بير-باولو بازوليني»، عام ١٩٦٨، ويحكي قصة عائلة ثرية من «ميلانو» سيحل ضيفاً عليها شاب غامض شديد الوسامة، ستكون له علاقات جنسية مع كل أفراد الأسرة.

جسدي بعناية ويحاولون قياس مدى ترهله.. كم عمرها على الأرجح؟

لو كنا مستلقيَيْن على الرمال، أحدنا بعيداً عن الآخر، لحظينا فقط باللامبالاة. ولكن أمام حالتنا الواضحة كاثنين بينهما علاقة، كانت النظرات متطاولة.. تلامس الذهول، كأنها أمام تركيبة مخالفة لطبيعة الأشياء.. أو أمام لغز غامض. ما كانوا يروننا نحن، بل، وبشكل ملتبس، نوعاً من زنا المحارم.

في يوم أحد، ببلدة «فيكامب»، وعلى الرصيف البحري، كنا نتمشى يداً في يد. من بداية الرصيف إلى نهايته، لاحقتنا عيون كل الجالسين على الحاجز الإسمنتي الممتد على طول الشاطئ. قال «أ» إننا مرفوضان أكثر من زوج من المثليين. تذكرتُ يوم أحد صيفي آخر، كنت أسير، وأنا في الثامنة عشرة،

بين والديَّ على هذه النزهة نفسها، تحفّني كل النظرات بسبب فستاني الضيق جداً، الأمر الذي جلب عليَّ التقريع الغاضب لوالدتي لأنني لم أرتدِ المِشَدَّ، الذي «يسوي اللباس بشكل أفضل» حسب قولها. شعرتُ أنني صرتُ، من جديد، تلك الفتاةَ المثيرة للفضيحة. ولكن هذه المرة، بلا أدنى إحساس بالعار.. بل بالنصر.

لم أكن دائماً محفوفة بمثل هذا الشعور بالنصر. في بعد ظهر أحد الأيام في مدينة «كابري»[1]، وأمام مشهد الفتيات ببشرتهن ذات السمرة الصيفية، اللواتي يرفرفن في كل الاتجاهات بالساحة حيث كنا نحتسي الـ«كامباري»[2]، قلت له: «الشباب يغريك؟». نبّهتني هيئته المتفاجئة ثم ضحكته الصاخبة إلى خطئي الفادح. كان الهدفُ من السؤال التعبيرَ عن تفهّمي

(١) «كابري» (Capri) جزير إيطالية سياحية تقع في خليج نابولي.
(٢) الـ«كامباري» (Campari) مشروب روحي إيطالي.

وتفكيري المتفتح، وليس معرفةَ حقيقة اشتهائه لي، والذي حصلتُ على برهانه قبل ساعة فقط. ولكن هذا الاستفهام لم يكن فقط يؤكد أنني لم أعد شابة، بل إنه يقصيه هو أيضاً من هذه الفئة، كأن العيش معي أخرجه منها.

كانت ذاكرتي تعيد إليَّ، بسلاسة، صور الحرب.. الدبابات الأمريكية بـ«لافالي» و«ليلبون»[1].. ملصقات الجنرال «دوغول» معتمراً قبعته «الكيبي».. مظاهرات ماي/أيار ١٩٦٨. وكنتُ برفقة شخص أقصى ما يمكن أن تعود إليه ذاكرته وبصعوبة بالغة، هو انتخاب «جيسكار ديستان»[2]. بجانبه تبدو لي ذاكرتي بلا نهاية. كانت لهذا السمك

---

(١) «لافالي» (La Vallée) بلدة في جنوب غرب فرنسا.
«ليلبون» (Lillebonne) بلدة في غرب فرنسا

(٢) «فاليري جيسكار ديستان» (Valéry Giscard d’Estaing) (١٩٢٦-٢٠٢٠) الرئيس الفرنسي ما بين ١٩٧٤ و١٩٨١.

الزمني الذي يفصل بيننا عذوبةٌ هائلة. . كان يُضفي على الحاضر كثافة أكثر.

كون هذه الذاكرة الطويلة التي تشمل زمن ما قبل ولادته، هي النظير، هي الصورة المعاكسة لذاكرته بعد موتي، وبعد امتلائها بالأحداث والشخصيات السياسية التي لن أعرف أبداً. . هذه الفكرة لم تكن تخطر ببالي أبداً.

على كل حال، فوجوده في حد ذاته كان نذيراً بموتي، كما هو حال ابنَيَّ، وكما كنتُ بالنسبة إلى أمي التي رحلتْ قبل أن تشهدَ نهاية الاتحاد السوفياتي، ولكنها كانت تتذكر قرع الأجراس في كل البلاد يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨[١].

---

(١) ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨ هو يوم إعلان نهاية الحرب العالمية الأولى.

كان يريد طفلاً مني. هذه الرغبة كانت تربكني وتجعلني أشعر بظلم عميق من كوني في صحة جيدة ولم أعد، مع ذلك، أستطيع الإنجاب. وكم اندهشت لكون هذا الأمر أصبح، بفضل العلم، ممكناً بعد سن اليأس، عن طريق بويضة امرأة أخرى. ولكن لم تكن تحدوني الرغبة في اتباع هذا السبيل الذي اقترحه عليَّ طبيب أمراض النساء. كنت فقط ألهو بفكرة أمومة جديدة، والتي لم أعد أشتهيها بعد ولادة ابني الثاني، وأنا في الثامنة والعشرين.

أما هو، فلعل الرغبات اختلطت عليه. في أحد الأصياف بـ«كيودجيا»[1]، ونحن ننتظر عَبَّارة «الفابوريتو» للعودة إلى البندقية، قال لي: «يا ليتني كنتُ في أحشائك، ثم أخرج منك لكي أشبهكِ».

عرض عليَّ صوره وهو طفل نحيف بشعر مجعد، ثم ومراهق بوجه عابس تحت شعر طويل.

---

(١) «كيودجيا» (Chioggia) بلدة سياحية قريبة جدا من البندقية، وتربط بينهما عبارات تسمى «الفابوريتو» (Vaporetto).

لم أحس بأي انزعاج في أن أريه صوري وأنا فتاة صغيرة ثم مراهقة. بالنسبة لِكلَيْنَا، فهي لزمن بعيد جدا. بذلت جهدا أكبر لكي أخرج صوري وأنا في العشرين، والخامسة والعشرين، واخترتُ، من باب الغرور، الأكثر جمالا بينها، مع علمي أنها هي بالذات التي ستجعل المقارنة أكثر قسوة مع وجهي اليوم، وهو أكثر نحافة وجموداً. إنها فتاة أخرى، هذه التي يشاهد والتي سيظل واقعُها - يحاول تَلَمُّسَه في ثنايا المرأة الحالية - منفلتاً منه إلى الأبد. الرغبة التي توحي بها هذه الفتاة ذات الوجه الصافي من التجاعيد والشعر الداكن المنساب الطويل، هذه الفتاة التي لن يرى أبداً. . هذه الرغبة لا أمل فيها. هذا ما أوحتْ به، ضمنياً، ردة فعله التلقائية: «هذه الصورة. . تحزنني».

في أحد الأيام، كنا نتناول الغداء في مطعم بـ«مدريد»، على نغمات أغنية «نانسي هولووي»[١]، «Don't Make Me Over»[٢]. استحضرتُ الحيَّ الجامعي الخاص بالبنات في «روان»، وبحثي المحموم، في شارع «أو-دو-روبيك» وميدان «سان-مارك»، عن لافتة طبيب يقبل أن يجري لي عملية إجهاض، في تشرين الثاني ١٩٦٣. كان «كينيدي» قد قُتِلَ للتو. رحت أنظر إلى «أ» وهو يتناول أمامي البطاطس المقلية. كان بالكاد أكبر من الطالب العشيق الذي حملتُ منه، والذي طبع في ذاكرتي، دون أن يدري، هذه الأغنية بصوت «نانسي هولووي» والتي كانت منتشرة على نطاق واسع في تلك الفترة، وأضفى عليها معنى الحب المجنون والضياع.. حالتي آنذاك. ساورتني الفكرة بأنه كيفما كان الرجلُ الذي سأسمَعُها برفقته، فلن يكون لها أبداً معنى آخر

(١) «نانسي هولووي» (Nancy Holloway) (١٩٣٢-٢٠١٩) مغنية أمريكية كانت ذات شهرة كبيرة في فرنسا في الستينيات

(٢) يمكن ترجمة عنوان الأغنية بـ: «لا تنهي علاقتي بك».

غير هذا. وإذا ما تذكرتُ، فيما بعد وأنا أسمعها مرة أخرى، مطعمَ «La Puerta Del Sol» و«أ» أمامي، فإن هذه اللحظة لن تستمد قيمتها سوى من كونها إطاراً لاستعادة ذكرى قاسية. ستكون فقط ذكرى مساعدة.

صرت أشعر، أكثر فأكثر، أن بإمكاني تكديس الصور، والتجارب، والسنين، دون الإحساس بأي شيء آخر غير التكرار في حد ذاته. كان يخالجني الانطباع بأنني خالدة وميتة في الآن ذاته، تماماً مثلما هي أمي في هذا الحلم الذي يأتيني كثيراً، وعند الاستيقاظ يداهمني اليقين، للحظات، أنها تعيش فعلاً بهذا الشكل المزدوج.

كان هذا الانطباع إعلاناً بانتهاء دوره كـ«فاتح للزمن» في حياتي.. بانتهاء دوري، كمرشدة في حياته أيضاً، بلا شك. غادر «روان» إلى «باريس».

شرعتُ في كتابة قصة ذلك الإجهاض السرّي التي كنت أحوم حولها منذ زمن طويل. كلما تقدمتُ في كتابة هذا الحدث الذي وقع قبل ولادته، شعرتُ بشيء لا يقاوم يدفعني نحو الانفصال عن «أ». كأنني أرغب في انتزاعه ودفعه خارجاًكما فعلتُ مع ذلك الجنين قبل أكثر من ثلاثين سنة. أخذت أشتغل، بشكل متواصل، على عملي السردي، و - وفقاً لاستراتيجية حازمة قوامها الابتعاد المطرد - على القطيعة معه، والتي تزامنت - وبفارق بضعة أسابيع فقط - مع نهاية الكتاب(١).

---

(١) تقصد «آني إرنو» هنا كتابها «الحدث» (L'événement) الذي تحكي فيه قصتها مع الإجهاض في بداية الستينيات. وقد صدر في عام ٢٠٠٠.

كنا في الخريف.. الأخير في القرن العشرين.

وجدتني سعيدة بالدخول وحيدة وحرة، إلى الألفية الثالثة.

١٩٩٨-٢٠٠٠

٢٠٢٢

هذا الكتاب

على عكس سنواتي الثماني عشرة والخمس والعشرين لمّا كنتُ مندمجة تماماً في كل ما يحدث لي بـ«روان»، بلا ماض ولا مستقبل، كان يخالجُني مع «أ» شعورٌ بأنني أعيد أداء مشاهد وحركات سبق لي عيشها.. بأنني أعيد أداء مسرحية شبابي.. أو مسرحية كتابةِ/عيشِ روايةٍ أنسج فصولها بعناية كبيرة.. فصلٌ عن نهاية أسبوع في الفندق الكبير بـ«كابورغ».. فصلٌ عن رحلة إلى «نابولي»...

الغلاف : سكينة صلوّن



